تحقيقات تاريخيـــــة

للأستاذ أحمد رمزي بك

أفرد الدكتور علي إبراهيم حسن في كتابه « دراسات في تاريخ المماليك البحرية » باباً عن السياسة الخارجية ضمنه حروب مصر وعلاقاتها مع الدول الأجنبية، وهو بحث شيق دل على سعة اطلاعه وتدقيقه حينما عرض لما يتعلق بدول المغول في فارس والقفجاق والهند، ولكني دهشت حينما أفرد قسماً للدولة سماها أرمينية وأدخل في حروب مصر معها فتح ملطية وآمد وغيرهما من البلاد الإسلامية إذ قال في صفحة ١٦٨ « إلا أن الأرمن قد عاودوا العصيان فأرسل إليهم الناصر حملة وأمر تتمركز بالانضمام إليها، فخرج في أول محرم سنة ٧١٥ وحاصر ملطية ودخلها في يوم الثلاثاء ٢٣ محرم من تلك السنة . » وفي صفحة ١٦ « توالت انتصارات جند الناصر ففتحوا مدينة عزقية من أعمال آمد في سنة ٧١٥ ثم فتحوا آمد بعد ذلك وقد ساعدت الأحوال السيئة في بلاد أرمينية الناصر محمداً على غزوها فقد تولى عرشها الملك ليو الخامس » .

والمعروف أن أرمينية الجغرافية لم يكن لها وجود سياسي في ذلك الوقت، ولم تكن ملطية ولا آمد تحت سلطان الملك ليو الخامس، وإنما كانت هناك مملكة للأرمن على أطراف بحر الشام وكان صاحبها يطلق عليه « متملك سيس » وقد انحصر ملك الأرمن في منطقة من السهول حول مدينة سيس تحيط بها الحصون التي أنشأها المسلمون والصليبيون واحتلها الأرمن وتحصنوا فيها، وكانت هذه الإمارة تخضع أحياناً خضوعاً إسمياً لمصر وتحالف المغول إذا جاءوا للفتح وتداري ملوك الروم من سلاجقة وتركمان، إذن فلا علاقة بين هذه القاطعة والحروب التي قامت في عهد الناصر في ديار بكر والجزيرة وأرض الروم وترتب عليها فتح ملطية وآمد وغيرها فقد حضر أبو الفداء تجمع عسكر مصر والشام في حلب ولازم الحملة في خروجها لفتح ملاطية وحدثنا عن المراحل التي قطعها الجيش المصري من عينتاب إلى نهر المرزبان وصحته مرزمان إلى رعبان فالنهر الأزرق قال « وجعلنا حصن منصور على يميننا » ثم إلى زبطرة حتى حصار ملطية ولم يذكر لنا الأرمن في طريقه ولا في عودته كأصحاب دولة وسلطان وإنما ذكر في ملطية حاكما اسمه جمال الدين الخضر وهو من بيت بعض أمراء الروم . وأماكن هذه المواقع التي مرت بها الحملة في سيرها وعودتها معروفة على الخرائط وهي بعيدة عن أراضي ملك الأرمن في سيس . وما قلناه عن ملطية ينصب على آمد الواقعة على نهر دجلة وبينها وبين « ليو الخامس » متملك سيس مراحل وأراضي شاسعة منها ما هو تحت

فنحن العرب لم نولد لنعيش، بل ولدنا لنعيش أحراراً في الدنيا، ولنعلم أهل الدنيا معنى الحرية، وكيف تكون الحرية . ولئن قعد بنا اليوم عجز عن تعليم هذه الناس، فنحن قريب سوف يأذن الله لنا بأن نأخذ بالأسباب التي تتيح لنا أن نعلمهم ما خلقنا من أجله، وعن قريب تنقشع عن عيون كثيرة ضلالات كثيرة أوهمتها أن العرب أمة متخلفة قد نفض الزمن منها يديه فصارت كلا وعالة على أهل الأرض .

إن العربي من أمثالك هو الذي سيشهد تراب هذه الأرض في يوم يرونه بعيداً ونراه قريباً، أن فضائل البشرية كلها لم تزل حية على فطرتها الأولى في هذه القلوب الزكية المطهرة، قلوب العرب، وأن العالم سيكون أسرع تقبلا للمعاني العربية في الحرية والإخاء والمساواة من تقبله لتلك المعاني الفرنسية التي تلفعت بالجشع واللؤم والغدر والخداع . وأن العربي هو وحده الذي يستطيع أن يحقق على هذه الأرض معنى الحرية والإخاء والمساواة لأنه حر بالفطرة لم يألف ذلا قط، ولأنه أخ لمن آخاه لأنه لا يعرف الغدر، ولأن الناس عنده سواء لأنه لا يفتات على أحد ولا يفتري على سواه من الناس .

وأنت أيها الأمير سيف من سيوف الله، ونحن جند من جنود الله فمش بيننا سيفاً مصلتاً مسلولا على أعناق البغاة والطغاة والظلمة، حتى يأتي اليوم الذي كتب الله لك أن تكون فيه ذبحاً لعدونا وعدوك ونصراً لأمتنا وأمتك، ومخرجاً لبلادنا وبلادك من ظلمات الأسر إلى نور الحرية .

والسلام عليك ورحمة الله .

محمود محمد شاكر

حكم مصر ، ومنها ماهو على حدودها فى الولايات التى كانت خاضعة أو متحالفة مع خانات أولإيلخانات مغول فارس ، وهى بقاع إسلامية لم يكن للأرمن وملكهم شأن بها . ودليلنا على صحة ما سقناه قول صاحب البداية والنهاية عند ذكره فتح ملطية « وقد كانت ملطية إقطاعاً للجوبان أطلقها له ملك التتار فاستناب بها رجلا كردياً فتعدى وأساء وظلم فكاتب أهلها السلطان الناصر وأحبوا أن يكونوا فى رعيته » . صفحة ٧٣ جزء ١٤ .

وفى أبى الفداء مايشرح شكوى أهل ملطية إذ قال « إن المسلمين الذين كانوا بها اختلطوا بالنصارى حتى إنهم زوجوا الرجل النصرانى بالمسلمة وكانوا يعدون الإقامة للتتر ويعرفونهم بأخبار المسلمين » صفحة ٩١ جزء ٤

ويظهر أن قاضى ملطية وكان أول من تلقى جند الناصر وطلب منهم الأمان لبلده له يد فى هذه الشكوى التى جعل من ضمن ماجاء فيها ما يبرر استفزاز حمية الناصر الدينية وإن كان أبو الفداء يضيف إلى ذلك سبباً آخر هو تعرض أهل ملطية لجند مصر المقيمين فى القلاع الشمالية مثل قلعة الروم وبهنسى وكختا وكركر فى غدوهم ورواحهم . ويذكر المقريزى فى السلوك (صفحة ١٣٤ جزء ٢ للدكتور زيادة) إن التعرض كان ضد الفداوية من أهل مصياب الذين أرسلهم الناصر لاغتيال قراسنقر المقيم بمدينة مراغة وإن الكردى الذى تغلب على ملطية وجبى أموالها قبض عليهم وترتب على ظهوره أن نائب ملطية من جهة جوبان ويقال له بدر الدين ميزامير بن نور الدين خاف أن يأخذ الكردى نيابة ملطية منه فكاتب الناصر واتفق معه على تسليم البلد إليه ، وقد خص فتح ملطية بصفحة فيها تفاصيل عن تسليم المدينة واحتفال نائبها والتشاريف والخلع التى وجهت إلى أعيانها ، ولم نجد فيها ولا فيما لدينا من المراجع إشارة أو كلمة يفهم منها أن ملطية كانت تحت حكم « ليو الخامس » .

ونحن نلتمس للدكتور على إبراهيم حسن عذراً لأن السير وليم موير فى كتابه « تاريخ المماليك فى مصر » ذكر فى الصفحة ٨١ (طبعة مصر مترجمة) « أرسل السلطان الحملات على بلاد الأرمن التعسة وحصرت عساكره ملطية » ، وجاء من بعده الأستاذ أنور زقلمة فوضع كتاباً عن « تاريخ المماليك » طبعة مصر كتب فى صفحة ٦٤ منه « وعاد الأرمن مرة ثالثة للعصيان عام ١٣١٤ فى عهد الناصر فأرسل لهم حملة قوية حاصرت مدينة ملطية » . وفى ذلك مايشعر بأنهم ينقلون جميعاً عن مصدر واحد وصاحب هذا المصدر إما اختلط عليه الأمر ولم يفرق بين ولاية سيس وأرمينية الجغرافية أو فهم من وجود طائفة من الأرمن فى ملطية أنهم أصحاب الأمر والنهى فيها ، أو هو على علم تام بهذه الحقائق ولكنه كغيره من كتاب الغرب الذين لا يملكون التحرر من تقاليد الحروب الصليبية ولذلك ينظرون دائماً بمنظار مكبر إلى كل مايذكر بآثارها ، ولما كانت ولاية سيس من تلك البقايا فهم يحملونها برغم أنف الزمن دوراً مهماً فى التاريخ والحروب والعلاقات السياسية ويضيفون إليها بلاداً إسلامية طال عهدها بالإسلام وأهله ، ويكبر على أنفسهم الاعتراف بأنها ولاية صغيرة فى كيليكية .

وواجب علمائنا فى التاريخ وضع الأمور فى نصابها وإعادة الحق لذويه ، ودولة المماليك من الدول الإسلامية التى لم ينصفها التاريخ وتعرضت لشتى الهجمات من مؤرخى الغرب ، ولكن الدكتور على إبراهيم حسن أنصفها فى كتابه وأنصف مصر ، وكان كتابه من دلائل النهضة القائمة والوعى التاريخى لإعادة القيم الحقيقية لذلك العصر فله عظيم الشكر والثناء

وقد اطلعت بعد كتابة ما تقدم على تحديد نيابة حلب فى عهد الناصر كما جاء فى مسالك الأبصار ونقل ذلك صاحب صبح الأعشى فإذا فيه « ولاية حلب متصلة ببلاد سيس والروم وديار بكر وبرية العراق وتحدها من الشمال بلاد الروم مما وراء البهنسى وبلاد الأرمن على البحر الشامى » ...

ويفهم من ذلك أن بلاد الأرمن يقصد عند ذكرها الأراضى الواقعة على خليج الاسكندرونة والبحر الأبيض المتوسط وهى التى يطلق عليها اسم كيليكية أو ولاية ادنه التركية حالياً والتى يخترقها نهرا سيحان وجيحان من الشمال إلى الجنوب : وعرفت بهذا الاسم فى هذا العصر الذى نتحدث عنه وإلا فهى قديماً بلاد الثغور والعواصم وفيها قبر المأمون بطرسوس ونسبت إلى مصر من عهد أحمد بن طولون ولها تاريخ طويل ومعارك وأيام .

ولما استملكها الأرمن بعد الحروب الصليبية تعرضت لهجمات المصريين فانتزع الملك الظاهر بيبرس قلاع بغراس والهنسي ودربساك سنة ٦٦٨ ثم فتح الأشرف خليل بن قلاوون قلعة الروم ٦٩١ وهي نهاية ماوصل إليه ملك الأرمن شرقاً ، وافتتح الناصر الحصون الواقعة في الشرق من جيحان ، ثم جاء الأشرف شعبان ففتح عاصمتهم سيس وبقية ما حولها من البلاد على يد قشتمر المنصوري نائب حلب وبذلك أصبحت ولاية أدنه بأكملها تحت حكم مصر حتى الفتح العثماني .

وجاء ذكر الحصون والقلاع التي تسلمها الناصر من ملك الأرمن في كتب التاريخ وليس بينها خبر عن ملطية أو آمد ، ونظرة بسيطة إلى خريطة مفصلة لتلك المنطقة تجعلنا نتحقق من مواقع القلاع التي ضمها الناصر من بلاد الأرمن وهي تكون مع الأراضي تقريباً مايشبه المثلث قاعدته خليج الاسكندرونة بين بياس وإياس ودائرة المارونية (نسبة لهارون الرشيد) وهي جميعاً شرق نهر جيحان . ويقول أبو الفداء « وهو ملك كبير وبلاد كثيرة » . ويقول صاحب السلوك « وأقطع السلطان أراضي سيس لنائب حلب ونائب الشام وغيرهما من الأمراء وأقر فيها جماعة من التركمان والأجناد ، فاستعملوا الأرمن في الفلاحة وعمل في كل قلعة من قلاع الأرمن نائب ورتب فيها عسكر »

ولكن الكتب التي أخذت من المصدر نفسه تقول بجلاء عسكر مصر ومنها كتاب الدكتور علي إبراهيم حسن الذي يقرر في صفحة ١٦٩ « ثم جلت جيوش الناصر بعد أن جمعت كثيراً من الأسلاب والغنائم » والحقيقة أن الجلاء كان عن الأراضي الواقعة بين النهرين أي شمال المصيصة وأدنة .

أما ما كان شرق جيحان فهو الذي تناوله الأقطاع ، ودليلنا على ذلك أن ملك الأرمن بعث بمفاتيح القلاع إلى القاهرة : وهي إياس (٣قلاع) والمارونية والنقير وكودا والحيمصة رنجيمة » كما جاءت في كتاب تاريخ سلاطين مصر والشام . ويضيف أبو الفداء مرفندكار والمصيصة وكوبرا . ويقول «ضرب السلطان برج إياس الذي في البحر واستنابوا بالبلاد المذكورة نواباً ...

ومع بقاء ملك الأرمن في عاصمته سيس حتى عهد الأشرف شعبان تحت حماية ملوك مصر بقيت بلاده عرضة لهجمات التركمان وعسكر ابن قرمان من آسيا الصغرى ، ولذلك نجد أن كتب التاريخ تحدثنا باحتلال جند الناصر لبعض القلاع الواقعة على سفوح جبال طوروس أوالتي تعترض الطرق الموصلة للجبال ، نذكر على سبيل المثال قلعة كولاك في شمالي طرسوس على خط عرض واحد مع المارونية وهي في نهاية الغرب من ولاية ادنة ، وهناك «باري كودوك» افتتحها باي دمير الخوارزمي في عهد الناصر وهي إلى الشمال من طرسوس ، ومنها « قلعة لؤاؤة » وهي شمالي كولاك .

ولا أجد تفسيراً لاحتلال هذه المناطق غير أن ملك الأرمن سلم بما بين يديه من الحصون التي على الشرق بشرط حمايته من الغرب باحتلال الحصون والمضايق التي يتسرب منها التركمان وعسكر ابن قرمان من الجهة الشمالية والغربية لمهاجمة بلاده .

إن التاريخ علم يتقدم مع الزمن شأنه شأن غيره من العلوم وقد يأتي لنا المستقبل بنصوص تفسر لنا كل ذلك فلا أجزم بشيء نهائي ...

أحمد رمزي

أطلب من دار الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

١ — في أصول الأدب

٢ — دفاع عن البلاغة

٣ — آلام فرتر .....

٤ — رفائيل .....